

المحاضرة 07: تجربة رشيد القسنطيني المسرحية

تمهيد:

عرف المسرح الجزائري الكثير من الصعوبات ومر بمراحل تاريخية متعددة، ولقد امتازت فترة (1926-1943) ببروز الفنانين الذين قدموا مسرحيات واقعية اهتمت بقضايا الشعب، وبالمقاومة السياسية التي بدأت مع مطلع العشرينيات، ولقد وصف مالك بن نبي هذه الفترة قائلا: «حوالي عام 1922 بدأت في الأرض هيمنة وحركة، وكان ذلك إعلانا لنهار جديد، وبعثا الحياة جديدة... وقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدر يتحرك.»^أ، ومن أشهر رجال المسرح في هذه الفترة "رشيد القسنطيني الذي تعلق به الجمهور لأصاله موهبته، وقدرته العجيبة على خلق الجو المسرحي في العرض.

أولا - لمحة إلى حياة رشيد القسنطيني.

هو رشيد بلخضر المعروف برشيد القسنطيني، من مواليد 11 نوفمبر 1887م بحي القصبة بالجزائر العاصمة، كان أبوه اسكافيا، درس في الكتاتيب القرآنية في زنقة بوعكاشة، ثم دخل المدرسة الفرنسية بحيه حيث تحصل على الشهادة الابتدائية، وفي السنة السابعة والعشرين من عمره عمل نجارا، وبعدها هاجر في بداية الحرب العالمية الأولى إلى فرنسا لإعالة أسرته، وعند عودته سنة 1926م، انضم إلى فرقة الزاهية^ب لعلالو ثم أنشأ فرقة مسرحية عام 1927 سماها "فرقة الهلال الجزائري".^ب

يقول عنه علالو: إن رشيد عمل نجارا وعرف الغربية، ولكن مغامراته كانت مأساوية ومؤثرة وأكثر مما هي مسلية هزلية، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، أغلقت جميع المؤسسات الجزائرية أبوابها، كما أغلق الكثير من الحرفيين والتجار دكاكينهم، وبين عشية وضحاها وجد "رشيد" نفسه بطالا، ولأنه كان يعول زوجة ورضيعها، فقد نزل إلى الميناء ليعمل حمالا ويحصل على بعض الدراهم، كما اشتغل فحاما على ظهر أحد البواخر، وبعدها البحر غير أن الباخرة تعرضت لهجوم بالطوريب من غواصة ألمانية، فقامت بارجية انجليزية بانتشال الناجين ومنهم رشيد القسنطيني، الذي نقل إلى مرسيليا، وفي نهاية الحرب حط رحاله بمدينة الجزائر.

كان رشيد في غاية السرور لرؤية أهله، إلا أنه تفاجأ بزواجه من جديد، ظنا منها أنه مات بعد غرق الباخرة، خاصة أن أخباره لم تصلهم طيلة ثلاثة سنوات، عندها ركب الباخرة عائدا إلى فرنسا، ليعود سنة 1924 مع زوجته الفرنسية مارغو (MARGO)، ثم تعرف بعدها على علالو ليبدأ نشاطه المسرحي^ج، ويحقق نجاحا كبيرا بتقديمه مسرحية "زواج بوبرمة"، ثم ألف واقتبس عشرين مسرحية منها: زغيربان: شرويوطو، بن عمي من اسطمبول، ثقبه في الأرض، بابا قدور الطماع، عائشة أم الزبال... الخ لقد توفي -رحمه الله- يوم 02 جويلية 1944 بالجزائر العاصمة ودفن بمقبرة القطار.

ثانيا - رشيد القسنطيني والمسرح الشعبي.

رشيد القسنطيني أكبر كاتب ساخر جزائري اشتهر بكونه مغنيا فكاهيا بارعا، كما عرف بقدرته الفائقة على ارتجال الكلام والأدوار وإضحاك الجمهور، إنه وحيد في طرازه لا يقبل تعويضا ولا تصنيفا، تلك هي بعض الأوصاف والنعوت التي استعملها بخصوصه بعض أقرانه على خشبة المسرح أمثال علالو وباشطارزي ومصطفى كاتب.

إن رشيد كوميدي كبير وأستاذ في فن الارتجال يحتل مكانه خاصة في مسرحنا، يقول عنه باشطارزي: إن قيمة الإبداع لدى قسنطيني لا تكمن في توجهه، ولكن في الحياة النشيطة وحياله كمؤلف بارع يعطيه القدرة على تكوين العبارات الناطقة لشخصيات المسرحية، ووصف سلوكياتها الخارجية في حركاته، وبذلك سحر قسنطيني الجمهور الجزائري حتى وفاته.^{iv}

ولقد اختلف الدارسون حول التراث المسرحي والغنائي للفنان نظرا لكونه لم يدون أعماله فظلت شفوية في العموم أو مسجلة على أسطوانات، حيث يرى عبد القادر جغلون: أنه رجل مسرح بالمعنى الأكمل للكلمة، جمع بين التأليف والتمثيل والإخراج، كما كان قولا يؤلف الكلمات ويغنيها، حتى غطت شهرته الجزائر، وتخطت المتوسط، لأن مسرحه ذو طابع وطني وشعبي يتوجه بالخطاب إلى الأكثرية الساحقة من السكان في مختلف المدن الجزائرية من الجزائر العاصمة إلى بجاية إلى عنابة وعين البيضاء.

مستخدما في ذلك شكلا جديدا من التعبير الثقافي باستخدام لهجة الكوميديا الساخرة ولهجة التهريج الفظة، ووفيا للتقاليد الثقافية الشعبية، كما يتجلى البعد الوطني والشعبي في مسرحه من خلال محتواه،^v لأنه يستقي موضوعاته من الحياة اليومية ويسخر من الأوضاع السائدة، حتى قال عنه كاتب ياسين: «شابلاين الجزائري»^{vi}، إذ إن أغلب مواضيعه من العادات والتقاليد الشعبية، ومن أحداث الحياة اليومية العادية، مثل ما نقرأه في "زواج بوبرمة" و"قدور الطماع" و"البوزرعي في العسكرية".

ولقد عرف هذا الرجل بالإضافة إلى خفة روحه، بقدرة عجيبة في ارتجال الأدوار، حيث يقول عنه محمد الطاهر فضلاء: إن أسلوب القسنطيني الحيوي العصبي الذي تجرّفه الروح الهزلية بدون مقاومة، بالإضافة إلى القوة الهزلية كل ذلك من خصوصياته، فهو مبتكر لحوار خاص، فقد عرف جيدا لغة العاصمة المسلمة التي هي مزج لذيذ بكل لغات البحر الأبيض المتوسط.

إن قوة الحياة النابضة على الدوام من خلال مسرحياته الهزلية تولد لدى المشاهد انطبعا بأنها غير مبنية على وفاق المنطق، ولكنها متخيلة بجدل وانسراح، وهي إلى ذلك مرتجلة ارتجالا بمحض الصدفة المواتية.^{vii} وبذلك أسهم في إرساء قواعد المسرح الجزائري بارتجاله الجملة المسرحية والغنائية فتأتي كأحسن ما تعد هذه الجملة.

ومن المؤسف أنه لم يبق من مسرحياته ومونولوجياته إلا ما سجل على الأسطوانات أما المخطوطات فقد ضاعت، أو بقي جزء يسير في حيازة بعض زملائه وأصدقائه، وفي مقدمتهم محي الدين باشطارزي، ولعله من الإنصاف البحث عن هذه المخطوطات والعمل على نشرها بعد مراجعتها، لأنها تراث فني لفنان أصيل، يمثل للمسرح الجزائري ما يمثله موليير للمسرح الفرنسي.^{viii} والمتلقي لعناوين وشخصيات مسرحياته ومونولوجياته يقف

على شعبية مادتها، وفكرة رائعة عن محتواها، فهي شكل من أشكال المسرح الاجتماعي النقدي نحو: الفحصي، والقبائلي، والبدوي، والزواج، والرثوة... الخ.

لقد امتاز "رشيد القسنطيني بموضوعات مسرحياته الوطنية الشعبية، وهذا ما جعله "فنان الشعب"، ix، أو كما يطلق عليه عبد القادر جغلون اسم "الرجل الجوقة، حيث يقول عنه: إن القسنطيني رجل مسرح بالمعنى التام للكلمة، لم يكن ممثلاً فقط بل مخرجاً أيضاً، كان قوالاً أي مغنياً ومؤلف كلمات في آن واحد، وكانت أغنياته تنشأ عند رفع الستار أو تدخل في صلب المسرحيات؛ بل وتسجل في الإذاعة أو على أسطوانات، حتى إنه توصل إلى أن يصبح ممثلاً سينمائياً، حيث مثل عام 1937م في فيلم "يسفاطي الرهيب" إلى جانب الفنان "هاري بور". x

وهذه الشهرة التي حصل عليها القسنطيني تعود إلى الطابع المزدوج لمسرحه وطنياً وشعبياً، حيث استطاع أن يسيطر على فنه بفضل أصالة موهبته وتخلصه من الارتباط الحرفي بالنص، إذ ينطلق منها خياله المبدع الذي لا ينضب ليبدع في كل عرض مسرحي أو أغنية تعديلات جديدة، تعبر عن شخصيات عديدة ومتنوعة كالعالم المزيف والقاضي الجاهل والسكير الفيلسوف وسيدة المجتمع المحتالة وثري الحرب... الخ.

ثالثاً - الإنتاج المسرحي لرشيد القسنطيني.

أنتج رشيد القسنطيني العديد من الأعمال المسرحية، ففي الوقت الذي تذكر فيه "آرليت روث" في كتابها "المسرح الجزائري"، أنه ألف أكثر من مئة مسرحية وسكاتش، وقراءة ألف أغنية، يذكر باشطارزي أنه ترك ما يقارب مائتي أغنية، سجل منها مائة على الأسطوانات.

أما عبد القادر جغلون فيقدر أعماله بخمسة عشرة مسرحية وست مائة أغنية، في حين يرى علالو أن مسرحياته تقدر بعشرين مسرحية، ومهما كان الاختلاف حول نتاج الفنان فإن مسيرته كانت حافلة بالعطاءات الإبداعية التي سحرت الجمهور الجزائري حتى وفاته، والجدول الآتي^{xi} يوضح الأعمال المسرحية التي خلفها القسنطيني قبل أن يغادر مسرح الحياة.

الرقم	عنوان المسرحية	عدد فصولها	تاريخ عرضها
1	العهد الوفي	3	1927م
2	زواج بوبرمة	3	22 مارس 1928م
3	زغيربان وشرويطو	-	10 فبراير 1929م
4	تونس والجزائر	-	11 مارس 1929م
5	بابا قدور الطماع	3	23 ديسمبر 1929م
6	لونجا الأندلسية	-	21 فبراير 1930م
7	شد روحك	3	26 يناير 1931م
8	ثقبه في الأرض	-	18 فبراير 1931م

9	تشرش	3	11 يناير 1932م
10	بوسبسي	3	18 يناير 1932م
11	عائشة وباندو	4	22 يناير 1932م
12	المورسطان	3	25 يناير 1932م
13	زيد عليه	3	02 يناير 1933م
14	الله يسترنا	-	22 يناير 1933م
15	بابا الشيخ	3	إبريل 1933م
16	تأخير الزمان	3	1933م
17	ياراسي، ياراسها	-	1936م
18	آش قالوا	3	19 فبراير 1938م
19	بوه على حسان	-	1943م
20	عائشة أم الزبايل	3	1943م

لقد تألق رشيد القسنطيني كفنان جماهيري كبير، وكان النجاح حليفه في كل العروض التي قدمها خاصة بين 1927 و1934م، ومرد ذلك أسلوبه الذي تفرد به بين أقرانه المؤلفين والممثلين، فهو مبتكر لحوار خاص ونثر منعش وجد حيوي، وإيقاع للصور وحركات وطاقة مرحة، ثم إنه صاحب تقليد بارع يقلد حسب المناسبة لهجة سكان العاصمة أو البدوي أو الفلاح، وفي تقليده يستعين بالمفردات الخاصة بمختلف الأوساط، كما أن اهتمامه باللغة وطريقته في التعبير كانت أحد العوامل الكبرى لنجاحه.^{xii}

استطاع رشيد القسنطيني أن ينال رضا كل المثقفين والطبقات الشعبية ذات المستويات المختلفة، لأنه عالج في أعماله المسرحية قضايا وأمراض اجتماعية مختلفة، ففي مسرحيته الأولى "زواج بوبرمة"^{*} وهي ملهاة تهرجية في ثلاثة فصول يطرح قضية السمسرة في عقد قران زوجين، ويتألق في دور اليهودي السمسار صامويل، أما في "بابا قدور الطماع" فيعرض لظاهرة الطمع في الزواج عن طريق رفع قيمة المهر.

أما في "زغيربان وشرويطو" فيقترب من الأسطورة، ويحاكي في ذلك مسرحية "جحاح" لعلالو،^{xiii} وهي مسرحية كوميدية قدمت يوم 15/02/1929، تحكي قصة أمير مرض بعد أن منعه أبوه من الزواج ممن يجب فيحاول "شرويطو وزغيربان" شفاء الأمير، وينتهي الأمر بهما إلى اختطافه رغم كل المخاطر، ويحتفظان به في الغابة ويحضران الفتاة التي يحبها ويزوجهما،^{xiv} وهي نهاية سعيدة تقاطع مع نهاية مسرحية جحاح، وبذلك أضاء رشيد القسنطيني المسرح الجزائري وفضائه، وقد كان ممثلاً بارعاً وكاتباً موهوباً وفناناً مبدعاً أسهم وبشكل كبير في بعث ونخضة المسرح الجزائري.

